العدوان على غزة

[الحرب الثانية عشرة]

المستشار طارق البشرى

الموضوع الذى أمامنا اليوم هو موضوع غزة، وهذا الموضوع عايشناه جميعًا يومًا بيوم وأصبحت معلوماتنا عنه متساوية، فليس منا من لديه معلومات أكثر من الآخر، إذن نحن نتحدث عن موضوع سبق العلم به، وتساوينا تقريبًا في المعارف الخاصة بوقائعه وبقدر كبير من التحليلات الخاصة به، ولذا تصورت أن الحديث فيه سيكون في ثلاث أو أربع نقاط، وذلك لإعادة ترتيب الوقائع بشكل أو بآخر حتى نستطيع فهمها والحوار حولها.

- **النقطة الأولى:** تتعلق بأهمية أرض الشام لمصر وللتاريخ المصرى.
- **النقطة الثانية:** تتعلق بقدر الحروب التي خضناها، وهذه الحرب الأخيرة فى سياق الحروب الممتدة في التاريخ المعيش المعاصر.
- **النقطة الثالثة:** الحروب النظامية والمقاومة الشعبية.
- **النقطة الرابعة:** تتعلق بالمقاومة فى فلسطين بين أهل الداخل وأهل الخارج.

فيما يتعلق بأهمية فلسطين أو أرض الشام عامة بالنسبة لمصر، خاض صلاح الدين الأيوبى معركة حطين فى أرض الشام، وكان وهو يحكم مصر يدافع عن المنطقة كلها، كان هذا فى عام ١١٨٧م. والمظفر قطز عندما أراد مواجهة التتار كان ذلك فى موقعة عين جالوت فى أرض الشام أيضًا عام ١٢٦٠م، إذن من يحاول الدفاع عن هذه المنطقة لا يدافع عنها من داخل مصر، ولكنه يخرج إلى أرض الشام. إذن حين حاربنا الصليبيين القادمين من الغرب وحين حاربنا التتار القادمين من الشرق، مع كيلهما كانت أرض الشام هى مجال المعركة، وكلتاهما كانت معركة الحسم أيضًا.

بعد ذلك وعندما أراد السلطان سليم الأول توحيد المنطقة الإسلامية قبل أن يصل إلى مصر كان قد فرض سيطرته على الشام، فى١٥١٦م سيطر على الشام، وفى عام ١٥١٧م سيطر على مصر. ثم استقل على بك الكبير بمصر عام ١٧٥٩م وأرسل أحد الولاة ليسيطر على الشام فلم يستطع، وتلاشى حكمه لمصر بعد عدد من السنوات، فلم يستطع أن يحتفظ بولايته على مصر مستقلا عن الدولة العثمانية مادامت أرض الشام بعيدة عنه. وعندما غزا نابليون مصر كان ذلك فى شهر يونيو سنة ١٧٩٨، و فى يناير١٧٩٩م ذهب إلى عكا وحاصرها ولم يمكنه أحمد باشا الجزار من اقتحامها وفشلت الحملة وعاد إلى مصر، وانتهت الحملة الفرنسية على مصر بعدها بعامين.

إذن لننظر إلى مدى إمكانية استقلال واستقرار حكم ثابت فى مصر دون أن يكون محميًا من أرض الشام. فعندما أراد محمد على السيطرة على مصر وكان واليًا عثمانيًا، وبدأ ينازع الدولة العثمانية سلطاتها كان أمامه طريق الشام وسيطر عليه، وبعد ذلك فى عام ١٨٤٠ جاءت معاهدة لندن التى أخرجت محمد علي من الشام وجعلته محصورًا فى مصر، وبقيت أرض الشام في يد الدولة العثمانية، ومنذ هذا التاريخ تقريبًا نستطيع أن نحدد أن كلتا المنطقتين فقدت استقلالها وظلت تحت الهيمنة الأوروبية. معاهدة لندن عام ١٨٤٠م جعلت مصر والشام تحت الهيمنة الأوروبية، بوجود كل منهما منفصلا عن الآخر، ولذلك بقيت أسرة محمد علي تحكم مصر، ولكن تحت الحماية الأوروبية التي بدأت حسبما نعرف من التاريخ المصري في عهد سعيد ومَنْ بعده. احتلت انجلترا مصر عام ١٨٨٢م، لكن مصر كانت تحت الهيمنة الأوروبية عامة منذ عام ١٨٤٠م والإنجليز احتلوها ليستخلصوها من أي نفوذ أوربي آخر.

ومع ضعف الدولة العثمانية بقيت المنطقة كلها تحت التأثير الأوروبي والهيمنة الأوروبية عليها، في الوقت الذي بدأ الإنجليز فيه الانفراد بمصر وفرض الحماية عليها رسميًا (كان ذلك عام ١٩١٤)، أعلنت الحماية على مصر ١٩١٤م، وفى ١٩١٧م صدر وعد بلفور بإقامة وطن قومي لليهود فى فلسطين، ووقتها قال الساسة الإنجليز إن هذا الأمر مقصود به حماية قناة السويس، بمعنى حماية نفوذهم وسيطرتهم على قناة السويس. وأوجدوا هذا الوطن القومى اليهودي في فلسطين. وُضعت فلسطين رسميًا تحت الحماية الإنجليزية سنة ١٩٢٢ بمعاهدة السلام، وجاءوا لها بمندوب سام يهودي هو هربرت صامويل لينفذ المشروع الإسرائيلي، وفى الوقت نفسه اعترفوا باستقلال مصر، كان ذلك بعد ثورة ١٩١٩.

وبعد الاعتراف باستقلال مصر، وُضعت فلسطين تحت إطار تنفيذ المشروع الصهيونى، وفى الوقت نفسه الذي فُرضت فيه الحماية على مصر وصدر وعد بلفور، عُقدت اتفاقية سايكس بيكو لتقسيم أرض الشام، ولا أقصد بأرض الشام دمشق كما يقال، ولكنني أقصد ما نقوله نحن في مصر بر الشام ونعنى به سوريا والأردن وفلسطين ولبنان، في أيام الحرب العالمية الثانية والإنجليز يحتلون مصر فأصبحت منطقة لابد من الدفاع عنها ضد الغزو الألمانى الذى كان قادمًا عن طريق شمال إفريقيا، ووصل عن طريق تونس وليبيا إلى العلمين بالساحل الغربي لمصر، وكلنا نعرف المعركة التى دارت هناك، وقتها أنشأ الإنجليز مركز تموين الشرق الأوسط لأنهُم أحسوا أنه لكى يمكن الدفاع عن مصر لابد أن تكون مصر والشام معا، ويكونان نوعًا من أنواع التكامل الاقتصادى أثناء الحرب وأيضًا نوع من أنواع الدفاع المشترك.

إذن لكي تدافع عن مصر حتى وأنت أجنبي لابد أن تضمن موضع أرض الشام بالنسبة لك، فالوزير البريطانى اللورد موين -الذى كان مقيمًا فى مصر وقتها- أرسل الصهاينة فردين لقتله، لأنه نظراً للتوازنات اللازمة أثناء الحرب بدأ يأخذ سياسة لا تحقق الطموح الصهيونى كاملا فقتلوه فى الزمالك بالقاهرة. إذن ارتباط مصر بهذه المنطقة ارتباط تاريخى ويستحيل التقليل من أهميته، وفيما عدا الحملة الفرنسية لم يتم احتلال مصر إلا عن طريق بوابتها الشرقية، حتى عندما حاول الإنجليز احتلال مصر عام ١٨٨٢ جاءوا عن طريق الإسكندرية ولم يستطيعوا فغيروا طريقهم ودخلوا عن طريق قناة السويس، بمعنى أنهم جاءوا أيضًا من الشرق.

مصر حقيقة هي متجانسة بل لديها قدر كبير من التجانس من أسوان حتى الإسكندرية، فلا يوجد فيها قبائل أوتكوينات طائفية أو إقليمية تتحدى هذا التجانس، وهذه ميزة فى مصر ولكنْ بها عيب واحد هو أن أمعاءها خارج جسمها، بمعنى أن أمنها القومى كله خارج حدودها، فمصر لا تستطيع العيش إلا من خلال ضمان السودان وضمان حدودها الشمالية الشرقية، فهى تُحتل وتُغتصب ولا تستطيع أن تكون لها إرادة سياسية وطنية صادرة عن مصالح هذا الشعب إذا لم تكن مؤمَّنة من جانب حدودها الشمالية الشرقية وجانب السودان.

وقد فهم الإنجليز ذلك وهم يحتلون مصر، ولكن السياسي الماهر ويبدو أن السياسيين الاستعماريين كانوا مهرة بالفعل- فأحيانًا يفكر السياسي المحتل فى ماذا لو اضطررت لإخراج قواتي منها؟ فكانوا يفكرون في كيفية احتلال مصر من خارج حدودها، ومصر بها هذه الخاصية فهي يمكن احتلالها عسكريًا من خارج حدودها، أما وهي داخل حدودها فلا يجوز احتلالها عسكريًا، ولكن متى تُحتل عسكريًا من الخارج؟ إذا وجدت

قوة عسكرية استعمارية مناوئة لها أو تحت سيطرة أجنبية فى السودان أو قوة عسكرية مناوئة واستعمارية في أرض الشام، فإن مصر تعانى الضغوط على إرادتها الوطنية، مما يجعل من الصعب عليها أن تقيم هذه الإرادة صدورًا عن الصالح الوطني العام، ونحن عندما يكون هناك احتلال على الفور نطالب بإزاحته ونطالب بالجلاء، ولكن عندما يبدو هذا الجلاء قائمًا او يتحقق، تبدأ على الفور الإملاءات الخاصة بالاعتبارات الأمنية المتعلقة بضمان هذا الاستقلال من خارج حدودها. ويقال لابد أن تكون لها سياسة خارجية ونحن نسميها خارجية لأنها خارج القطر المصرى وهي متعلقة بتأمين هذا الوضع المتعلق بالشام أو المتعلق بالسودان.

وعندما قامت ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢، وجدت أن موضوع السودان مشكلة فأرادت حله بشكل ما، وقد كانت هناك مشكلة فى مصر والسودان، فقد كانت هناك إثارة لموضوع وحدة مصر والسودان ولكن القوة الوطنية الحاكمة أيامها لم تكن لديها سعة أفق بحيث تجعل تنظيماتها مصرية سودانية فى الوقت نفسه، فعندما تَشكّل الحزب الوطنى تشكل من المصريين فقط دون السودانيين، وعندما تشكل حزب الوفد تشكل من المصريين دون السودانيين، وعندما تشكل جهاز الدولة كان دائمًا من المصريين فقط، فبأى حق يطلب المصريون الوحدة مع السودان والتكوينات المؤسسية الرسمية والأهلية لا تعكس هذا؟! ولقد كانت طموحات الحركة الوطنية المصرية أكثر من إمكاناتها المؤسسية وهى بتشكيلها المصرى القح حكمت بانفصال مصر عن السودان.

جهود ثورة ٢٣ يوليو الحقيقية أنها حاولت أن تضمن باتفاقية السودان سنة ١٩٥٣ ألا يكون السودان تابعًا للإنجليز ويخير فقط بين الاستقلال الوطني أو الوحدة مع مصر، وبالطبع اختار الاستقلال الوطني، وعلى الفور بدأ الحكم الوطنى هناك، وفى الوقت نفسه نشأ السد العالي ليكفل لمصر القدرة على حماية مياه النيل لعدة سنوات إذا حدث شيء يتعلق بهذه المياه؛ لأنا قبل ذلك لم يكن لدينا سوى خزان أسوان فقط، وخزان أسوان كان ينظم الرى لمدة سنة زراعية فقط ولم يكن يحتمل تخزين مياه أكثر من ذلك، وكان هناك عدة خزانات فى السودان وبذلك كانت الخزانات السودانية تستطيع أن تتحكم في المياه المصرية زرعة بزرعة، فإذا لم يعطني حجم المياه المطلوبة فى شهر يونية مثلا لزراعة الأرز لن أستطيع زراعته، فالوضع كان يشبه وجود صنبور يستطيع إغلاق المياه في أي وقت، ولذلك نجد أن مفتشي الري المصريين كانوا دائمى الوجود في السودان وقتها، فالسد العالي كفل لمصر الحماية فيما يتعلق بالمياه لعدد من السنوات القليلة، تستطيع إدارة أمورها ويطول به نَفَسُها حتى تستطيع تدارك أمرها في هذا الشأن، كان هذا بالنسبة للسودان.

بالنسبة للوضع الثانى، كانت هناك فلسطين وظهور الدولة الصهيونية بها، ولذلك أول اتفاقية تمت لثورة ٢٣ يوليو كانت اتفاقية الدفاع المشترك الخاصة بجامعة الدول العربية. كان هناك اتفاقية تمت فى سنة ١٩٥١، ولكن تمت اتفاقية أخرى سنة ٥٣ للدفاع المشترك بين سوريا ومصر والسعودية أيام الملك عبد العزيز، وبحس عسكري لابد أن يكون لديك دفاع مشترك ليس فقط من أجل الوحدة الوطنية والقومية العربية، ولكن لأنه لابد أن يكون هناك خط دفاع موجود بالنسبة لهذه البلاد وخاصة مصر والشام، ومن هذا الوقت وحتى اليوم لم يحدث قط أن اتفقت السياسة المصرية مع السياسة السورية والسعودية أبدًا، فدائما تأتى مصر مع سوريا فتفلت السعودية، وإذا جاءت مصر مع السعودية تفلت سوريا، وكل هذا يؤدى إلى استمرار التبعية والخضوع والهيمنة، ومن أجل ذلك نتكلم عن فلسطين.

وأنا أرى أنه من العيب أن نقول مصر أولا، فهذا الكلام غير منطقى؛ فالأمن أهم من الطعام، وليجرب كل منا يخاف أم يجوع؟ فالخوف أشد وطأة على الإنسان من الجوع، الإنسان يفقد قدرته وإنسانيته عند الخوف وليس عند الجوع؛ فمع الجوع يستطيع المقاومة ويستطيع تدبير نفسه أما مع الخوف فلا، إذن هذه الأمور تتعلق بالأمن وليست متعلقة حتى بالرخاء.

النقطة الثانية المتعلقة بالحرب الأخيرة في غزة، أنها الحرب الثانية عشرة فى سلسلة من الحروب المتواصلة من ١٩٤٨- ٢٠٠٨ أى على مدار ستين سنة، و أنا أقوم بحساب الحروب الأمريكية مع الحروب الإسرائيلية على أساس أنها كتلة واحدة، فليس هناك سياسة في العالم توحدت بين دولتين مثل هذا التوحد اللصيق الذى لا ينفصم أبدًا كما توحدت السياسة الأمريكية والإسرائيلية، وسنجد أن السياسة الأمريكية على مدى هذه السنوات الطويلة قد تغيرت، مع الإتحاد السوفيتي وبعد ذلك مع مجيء روسيا تغيرت أيضًا، وتغيرت أيضًا مع الصين من عدم الاعتراف بها ثم الاعتراف بها ثم قيام علاقات مع سلام بارد، وتغيرت أيضا مع الهند

وباكستان، كما تغيرت أيضًا مع دول كثيرة فى أمريكا الجنوبية. يتم إذن تعديل السياسة حسب الظروف والأحوال، فيما عدا هذه العلاقة المتعلقة بالأمريكان والصهاينة فلم تتغير أبدًا، فهذه سياسة ثابتة مستقرة على مدى هذه السنين لم يحد سياسى أمريكى عنها، لا جمهورى ولا ديمقراطى، لا أيزنهاور ولا كلينتون ولا أوباما ولا غيرهم. إذن من حقنا أن نعتبر أن حروبهم واحدة، خصوصًا أننا نجد أن المصلحة ليست مشتركة فقط ولكنها متحدة بين إسرائيل والسياسة الأمريكية الثابتة المستقرة، وعندما نضع هذا فى اعتبارنا سنجد أنها ١٢ حربًا بالفعل وهي كالآتى:

١- حرب ١٩٤٨.

٢- حرب ١٩٥٦.

٣- حرب ١٩٦٧.

٤- حرب الاستنزاف التى تمت بين مصر وإسرائيل بين الحربين السابقة واللاحقة.

٥- حرب ١٩٧٣.

وهذه الحروب الخمسة كانت مصر مشاركة فيها بل كانت المقاتل الرئيسى فيها، وانتهت بحرب ٧٣ وبعدها لم تعد مصر تحارب. وجاءت بعد ذلك سبع حروب هى:

٦- حرب ١٩٨٢اجتياح لبنان.

٧- انتفاضة ١٩٨٧ الفلسطينية في أرض فلسطين.

٨- حرب الأمريكان في الكويت والعراق سنة ١٩٩١.

٩- انتفاضة عام٢٠٠٠ الفلسطينية فى أرض فلسطين

١٠- حرب العراق سنة ٢٠٠٣.

١١- حرب لبنان ٢٠٠٦.

١٢- حرب غزة ٢٠٠٨.

إذن هناك ١٢ حربًا على مدى ستين سنة، بمتوسط حرب كل خمس سنوات. إذن هي حرب واحدة ووقائع متسلسلة، هي حرب واحدة ومستمرة ولذلك هناك عدو إستراتيجى أمامنا، إذا نظرنا لمعاركه سنجدها تتنقل: مصر ثم لبنان ثم تنتقل إلى العراق والكويت، وغرب سوريا مازال محتلا حتى الآن، إذن العدو هنا يوحدنا ونحن لا نتعظ ولا نتوحد، ولذا من حقنا أن نعتبر أن هذه الحرب هي مواجهة إستراتيجية على مدى طويل، ونحن أحيانًا نجد بعض المسئولين يقول إن العلاقة بيننا وبين أمريكا هى علاقة تحالف إستراتيجى!! والحقيقة أننى أجد هذا الكلام غريبًا جدًا، فهل من الممكن أن تقيم تحالفًا إستراتيجيًا مع عدو إستراتيجي؟!!

النقطة الثالثة وهي الحروب النظامية والمقاومة الشعبية، هل إسرائيل تشكل احتلالا للإرادة المصرية من خارج الحدود المصرية؟ حروبنا مع إسرائيل دائمًا حروب تحرير، وبمعنى آخر أن العدوان علينا دائمًا من إسرائيل، ففي حرب ٤٨ العدوان على فلسطين، وفي ٥٦ العدوان علينا فى مصر، وفي ٦٧العدوان علينا أيضًا، وفي ٧٣ وقبلها حرب الاستنزاف حروب تحرير الأرض المصرية، وفي هذه الحرب يدخل الشأن المصرى بشكل أكبر، إسرائيل لديها مدد سلاح وتنظيم وعلوم وتكنولوجيا من أمريكا والغرب لا ينقطع، وأيضًا إمكانات اقتصادية ضخمة. المقاومة ضد أى احتلال عسكرى من دولة كبرى بجيش نظامي محكوم عليها بالفشل، هذه نقطة محسومة حتى لو نظرنا إليها من أيام محاربة أحمد عرابى للاحتلال الإنجليزى وفشله.

الحروب النظامية تكون بين دول متعادلة من ناحية القوة العسكرية، الوسيلة الأساسية لمقاومة الاحتلال العسكري من دولة كبرى هى المقاومة الشعبية، والمقاومة الشعبية لا تعتمد على القوة الخاصة بالجيوش ونظمها والأسلحة التي لديها وقوتها النظامية والاقتصادية. يدافع المحتل عن مصلحة، والمقاومة تدافع عن وجود وعن حرية، المصلحة أقصر نفسًا من الوجود وأقل ضرورة منه، وهذا يجعل المقاوم أطول نفسًا؛ لأنه لن يتوقف فهو

يدافع عن وجوده، الذى يدافع عن مصلحته إذا جعلته يشعر إنه لا يحققها وإذا جعلته يشعر إنها تؤدى به إلى الخسارة وليس إلى النفع انتهت آماله، ولذا نجد أن الفيتناميين –رغم صغر حجم ومساحة فيتنام– غلبوا الولايات المتحدة، ونجد أن الصين بالرغم من أنها كانت فقيرة جدا غلبت الاحتلال الياباني، الجزائريون أيضا غلبوا الفرنسيين.

ما قامت حرب تحرير شعبية إلا وانتهت بالنصر على المعتدى، وقديمًا كانوا يقولون حين تسقط العاصمة تسقط البلد، ذلك في التاريخ الوسيط، واستمرت هذه القاعدة موجودة حتى اليوم ليس عن طريق العاصمة ولكن عن طريق الجيش النظامي، إذا غلب أحد الجيشين الآخر في معركة نظامية حاسمة تسقط الدولة، أول شرط في المقاومة الشعبية هو تفادي المعارك الحاسمة، حتى فى الكتب الخاصة بحرب العصابات يقولون إذا تابعك العدو تجرى وتهرب، وإذا تقدم تقهقر، وإذا توقف ناوشه، وإذا استقر فاضربه، واعمل على تفادي المعارك الحاسمة، وبهذا الشكل لن يستطيع هو أن يدخل معك فى معركة حاسمة، وهذه الحروب تحتاج إلى تضحيات ولذلك نجد أن الخسائر البشرية في المقاومة الشعبية كثيرة جدًا، إذن المقاومة الشعبية تعتمد على تقديم تضحيات بشرية ضخمة وتتفادى المعارك الحاسمة وتجعل العدو دائما قلقًا وغير مستقر.

وسنضرب مثلا على ذلك بالحركة الشعبية في مصر سنة ١٩٥١ عندما قويت جدًا فقرروا إلغاء المعاهدة مع الإنجليز والتي تمكنهم من الوجود العسكري المشروع في مصر، وجاء مصطفى النحاس وأعلن إلغاء المعاهدة، فأصبح الوجود الإنجليزى في مصر غير مشروع، وراحت الناس تتنادى لعمل مقاومة شعبية، وأخذت الأحزاب تعمل على ذلك قدر طاقتها وكنا طلبة فى ذلك الوقت، وكان هناك معسكر داخل الجامعة –بعلم وموافقة عبد الوهاب مورو رئيس الجامعة وتحت نافذة مكتبه– لتعليم الطلاب استخدام السلاح وكيفية إلقاء القنابل اليدوية والرماية، وكان يقوم بذلك أفراد يرتدون اللون الكاكى، وكانت هناك معسكرات مثل هذه في كثير من الأماكن، وشعر الإنجليز بأن ذلك سوف يتزايد وينمو أكثر مع الوقت ويكتسب خبرات وما إلى ذلك، فقاموا بعمل مذبحة البوليس في الإسماعيلية لكى يستدرجوا الدولة وتكون معركة حاسمة وينتهي الأمر، ولكن مادامت المسألة بين الشعب والمحتل فلن يستطيع التصرف، أما عندما تكون مع الدولة، فيستطيع الضرب وإنهاء الموضوع. كان ذلك يوم ٢٥ من يناير وبالفعل قتلوا الكثير من أفراد البوليس المصرى في المقر الخاص بهم فى الإسماعيلية، وقامت بعد ذلك ثورة ٢٣ يوليو وألغت الأحزاب وأصبحت الدولة فقط والإنجليز محتلين غير معترف بهم، فهل سيستمر الدفاع الشعبى والتدريب العسكري في الجامعات؟ بالطبع لا، والجيش النظامى لن يستطيع، ولكن حكومة الثورة حكومة وطنية وتريد إخراج الإنجليز بالفعل فماذا تفعل؟ فخلع لابسو الكاكي زيهم وارتدوا الملابس العادية وقاموا بعمل مقاومة شعبية وظلوا مرتبطين بالجيش في الوقت نفسه.

ونجد من قاموا بتشكيل أجهزة الأمن بعد ذلك ينتمون إلى العناصر نفسها مثل كمال رفعت، وبذلك فإن المقاومة الشعبية قد تكونت من ناس مرتبطين بجهاز الدولة دون أن يكونوا من جهاز الدولة، وكسبت هذه المقاومة وحدثت اتفاقية ١٩٥٤ وما حدث في التاريخ بعد ذلك، وبدأ التفكير في تطبيق هذه الخطة فيما يتعلق بفلسطين، وجرى تنفيذ ذلك عن طريق غزة التي كانت تحت الإدارة المصرية وبالفعل كان الأفراد يخلعون الكاكى ويرتدون الملابس المدنية ويقومون بتدريب الناس على استخدام الأسلحة. ولما تنبهت إسرائيل إلى ذلك وجعت ضربات مؤلمة للجيش المصرى فى سيناء لكي تستدرج الدولة وجيشها النظامى، ومع كون الحكم في مصر حكمًا عسكريًا فضرب الجيش لا يجوز ويعتبر إهانة، وبذلك نجحت إسرائيل فى إجبار مصر على الدخول في حروب نظامية في صراعها معها، فبوجود حكم عسكرى يعتمد على الدولة لا يمكن أن يتم ضرب الجيش ويتعامل مع الموقف عن طريق المقاومة الشعبية.

ومنذ ذلك الوقت بدأت الحروب النظامية ضد إسرائيل. ومن الإنصاف القول أنه كان محكومًا عليها أن تكون كما حدثت بالضبط، فأنت بالفعل تحارب أمريكا؛ أقوى قوة عسكرية منظمة فى العالم بكل ما فيها من أسلحة وتكنولوجيا وكل ما فيها من علوم ومخترعات حديثة، إذن الحروب النظامية هنا لن تصلح، ولذلك الشيء الإيجابي الوحيد الذى تم من أيام الرئيس السادات قوله إن حرب ٧٣ هي آخر الحروب بالرغم من أنه كان يقصد أن بعد ذلك سيكون هناك سلام، بالطبع السلام لم يتحقق ولن يتحقق طالما بقيت إسرائيل توسعية بهذا

الشكل الذى نراه، ولكن وجه الصواب في هذه المقولة هو أن حرب أكتوبر ٧٣ ستكون آخر الحروب النظامية؛ لأن بعدها سيتجه الأمر إلى الكفاح الشعبى والمقاومة الشعبية، وتمثل ذلك فى الدول التى ليس بها سلطة مركزية قوية، لأن السلطة المركزية القوية لا تقبل أن تكون لديها مقاومة شعبية قوية خارجة عن سيطرتها، ولذلك نشأت المقاومة الشعبية في لبنان حيث الدولة ضعيفة وفي فلسطين حيث لا دولة، وفي الصومال أيضًا. فكلما كانت الدولة ضعيفة كانت المقاومة قادرة على الوجود المستقل وقادرة على التنفس، وهذه معضلة لن نستطيع حلها قريبًا.

النقطة الرابعة تتعلق بالمقاومة في فلسطين، وفلسطين كانت مجتمعًا بشريًا مثل كل المجتمعات التي خلقها الله في العالم، بمعنى مجتمع مستقر وضعه، فيه طوائف وطبقات ودولة وفئات مختلفة وأيضًا قبائل وأسر وقرى وحواضر، وبدخول الصهاينة ومع التشتيت والتهجير والضرب والتقتيل تمزقت البنية الاجتماعية داخل فلسطين، فلم تعد الأسر متجانسة ومترابطة، ولم تعد هناك علاقة بين الطبقات فأصبح المجتمع مهلهلا، وبذلك أصبح المجتمع ركامًا يعيش أهله في الملاجئ والمخيمات وتوزعوا على البلاد العربية وبعضهم ذهب إلى أمريكا وباقى دول العالم، وبظهور فتح احتاج المجتمع إلى عشرات السنين لكي يتجمع مرة أخرى ويظهر ويكون له تكوين سياسي، وكان ذلك أساسًا فى المهجر، إذ بدأت التركيبات الضخمة للفلسطينيين في المهجر في التجمع مع بعضهم البعض، وكان يجب أن يمر وقتٌ طويل حتى يتجمّع المجتمع من جديد ويستقر.

وفي ذلك الوقت كانت منظّمة التحرير الفلسطينيّة تمثّل للفلسطينيّين رمز الوطن، ورمز الانتماء للوطن، أي أنّها كانت بمثابة وطن تصوّرى، أنت لست فى بيتك، أنت فى بلد عربى. وبحكم تنقّلها بين عدّة أقطار عربيّة، أخذت المنظمة طابع الدولة التي تتخذها مقرًا لها، لم تكن المنظمة مستقلة في سياساتها ولكن من حسن الحظ كان لدينا حكومات وطنية مثل مصر وسوريا ولم يكن متاحًا للمنظمة إلا أن تخضع لتوازنات البلاد العربية وتعمل في إطار هذه التوازنات، حتى إنه يمكن قراءة ملامح السياسة للأقطار العربية ذات التوجّه الاستقلالي من خلال المنظمة، ولم يكن للمنظمة إلا ذلك فلم يكن لها استقلال، ولما انهارت هذه الحكومات الوطنية بدأ الاستقلال يقع وبدأت سياسات أخرى تظهر، فوقعت أحداث أيلول الأسود في الأردن.

وقد تنبّه لهذا الأمر ياسر عرفات فكان يخشى على المنظمة من أن تُستوعب فى الدولة التى تقيم فيها، ومن هنا كان دائمًا يرفع شعار: منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطينى. وعندما اختفى التوجه الاستقلالى للبلاد العربية بدأت الحركة الفلسطينيّة تنتقل من الخارج إلى الداخل؛ أى إلى داخل أرض فلسطين المحتلة، وبدأت منظمة التحرير الفلسطينيّة تتحول من «وطن» إلى «تنظيم»؛ لأن الوطن قد صار متحققًا في الأرض المحتلة ذاتها.

وبدأت تظهر قوة الداخل الفلسطيني، وفوجئنا في عام ١٩٨٧بظهور أطفال الحجارة، حين قام أطفال لا تزيد أعمارهم على ١٥ و١٦ سنة بحمل الحجارة ورميها على الإسرائيليين.

وهنا بدأ الداخل الفلسطيني يتحرك، وبدأ مركز الحركة الفلسطينية ينتقل من الخارج إلى الداخل ويعمل، وهذا ما أدركه ياسر عرفات، ففى البداية كان يخشى من الأردن وكان يقول إن منظمة التحرير الفلسطينية هى الممثل الشرعى الوحيد للشعب الفلسطينى في مواجهة ألا يتم استيعابها من الأردن، وعندما بدأت حركة الداخل أصبح هذا الشعار في مواجهة الداخل، حتى لا يكون الداخل هو الممثل لأن الداخل أصبح أكثر كفاءة وأكثر قدرة على الاستقلالية من ضغوط الخارج عليه، كما أصبح أكثر قوة على إنقاذ نفسه من التوازنات الخاصة بالحكومات العربية وبالمنطقة العربية وإخراج نفسه منها، وأيضًا يستطيع فرض سياسة خاصة به في حدود إمكاناته، كل ذلك لا يقدر عليه عرفات وهو بالخارج، فأصبحت مشكلته مع الداخل. بعدما كان الخطر أن تقضي عليه دول أخرى أصبح الخطر أن يقضى عليه الداخل، وبذلك تتحول المنظمة من ممثل وطن إلى تنظيم، ولذلك بدأ يأخذ سياساته في مواجهة الداخل الفلسطينى. كارل ماركس له كلمة في سياق النظرية الماركسية فهو يقول: إن الطبقة البرجوازية تظل وطنية حتى تجد الطبقة العاملة قد أخذت تنمو وتكبر واستشعرت خطرها فلا تبقى الطبقة البرجوازية وطنية.

وإذا استبدلنا طرفَيْ نظرية كارل ماركس بالداخل والخارج سنجد الصورة كالآتى: أن أهل الخارج كانوا وطنيين حتى بدأ أهل الداخل منازعتهم الأمر فبدءوا فى تأكيد علاقتهم بالخارج ضد الداخل، وهنا المشكلة. ونحن نرى أن كل قوى المقاومة سواء كانت حماس أو الجهاد أو الجبهة الشعبية تعتمد أساسًا على المواطنين داخل فلسطين في الضفة وغزة، وعمومًا هذه المشكلة سنجدها عندما نتحدث في أى موضوع يتعلق بتنظيمات سياسية وانشقاقات عن هذه التنظيمات، فحيثما توجد تنظيمات سياسية بها من يحمل السلاح وبها أيضًا السلميون سوف يدب نوع من أنواع الصراع بين الاتجاهين، وحيثما يوجد أهل داخل وأهل خارج سوف يدب الصراع بين هؤلاء وأولئك؛ وذلك لأن الرؤية مختلفة والأوضاع مختلفة والإمكانيات مختلفة والأدوات التى يستخدمونها أيضًا مختلفة، وبالطبع كل ذلك يؤدي إلى اختلافات في السياسات المقترحة.

•••